الدبلوماسية الروسية
في الجزيرة العربية والخليج العربي

أواخر القرن التاسع عشر – أوائل القرن العشرين

أ. د. فيتالي نعومكين

كان الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي (القرن الثالث عشر الهجري) فترة نمو في اهتمام الإمبراطورية الروسية بالعالم العربي والإسلامي بشكل عام وبالجزيرة العربية بشكل خاص.

وكانت روسيا ذلك الحين تتصارع في الشرق العربي مع منافستيها الدولة العثمانية وفارس على مجالات النفوذ، بيد أنه لا يجوز النظر إلى تصرف إمبراطورية روسيا حيال العالم العربي والاسلامي عمومًا وشبه الجزيرة العربية خصوصًا من خلال منظور المجابهة ضد الدول الأخرى أو التوسع حصرا، وقد وجه مسلمو روسيا أبصارهم نحو الأراضي المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة منتهزين أية فرصة سانحة لتأدية فريضة الحج، وقد أدى احتلال روسيا مناطق جديدة يقطنها مسلمون في القرن التاسع عشر الميلادي (القرن الثالث عشر الهجري) إلى زيادة تعداد المسلمين بين رعايا الإمبراطورية الروسية؛ مما أسهم ذلك بعناية المنطقة التي تقع فيها الأراضي الإسلامية المقدسة.

وكان اهتمام روسيا المتزايد بمنطقة شبه الجزيرة العربية والخليج العربي مرتبطًا كذلك بمصالحها التجارية – الاقتصادية، وكان أحد المسارات التي جرت عبرها الاتصالات بين روسيا والخليج مسار آسيا

الوسطى - الدولة العثمانية، وقد اكتشف ذلك المسار التاجر الروسي أفاناسي نكيتين في أعوام الستينيات والسبعينيات من القرن الخامس عشر للميلاد، وبعدئذ أخذ الروس يصلون إلى الجزيرة العربية عبر المسار الثاني بحر قزوين - بلاد فارس، وكذلك المسار الثالث عبر البحر الأسود والأبيض والمتوسط والأحمر.

وفضلاً عن البعد الإسلامي التجاري - الاقتصادي لاهتمام الإمبراطورية الروسية بالجزيرة العربية كان هناك أيضًا البعد العسكري - الإستراتيجي، وقد أصبح ملحوظًا بشكل خاص أواخر القرن التاسع عشر؛ حين أخذت روسيا تقوم بمحاولات المجابهة لا ضد منافستها التقليدية الدولة العثمانية وحدها، وإنما أيضًا ضد بريطانيا التي صارت تكتسب المزيد فالمزيد من الأهمية في المنطقة. وفي أواخر القرن التاسع عشر - أوائل القرن العشرين افتتحت في شبه الجزيرة العربية والخليج العربي واحدة تلو الأخرى القنصليات الروسية أولاها في البصرة وجدة، ومن ثم في بوشهر، وعدا هذا افتتح في سنة ١٩٠٣م (١٣٢١هـ) خط مباشر لنقل الركاب من ميناء أوديسا في البحر الأسود إلى الخليج العربي، وقد افتتحت القنصلية الروسية في جدة عام ١٨٩١م (١٣٠٨هـ)، ونظرًا لأنه لا يكاد يعرف أي شيء عن أعمالها في ذلك العهد يستحق الأمر تناول هذه الأنشطة ببعض التفصيل.

في يوم ١٣ أيار (مايو) من سنة ١٨٩١م (٥ شوال ١٣٠٨هـ) وجهت سفارة الإمبراطورية الروسية في مدينة أسطنبول تعليمات خاصة إلى المستشار الفعلي شاهيمراد إبراهيموف(١) لخصت فيها الغايات والمهام المنوطة بالقنصلية الجديدة، وقد ورد في تلك التعليمات أن أهم هدف من تأسيسها هو حماية حجاجها المتوجهين بأعداد كبيرة

---

(١) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. الرصيد التركي. الورقة ٥٠٢ ظهرها ١٨٩١، الملف ٣٣١٢، الأوراق ٤ - ١٣.

إلى التعبد في الأراضي المقدسة بمكة والمدينة(٢)، وأنيطت بالقنصل مهمة تنظيم مراقبة الحجاج "وفهم احتياجاتهم ومشاطرتهم إياها والدنو منهم في علاقات أقرب"، وفي الوقت عينه أفادت السفارة إبراهيموف بوجوب إعداده قواعد عامة لعلاقات القنصلية مع الحجاج وحقوقهم وواجباتهم تجاه رعايا روسيا. وأرسلت هذه الوثيقة لتصديقها إلى سانت بطرسبورغ، ولكن السفارة طلبت الشروع على الفور بالاسترشاد بها.

ورأت السفارة أنه من اللازم أن تحقق القنصلية المراقبة العامة على الحج وتأثيره على رعايا روسيا "وعلى المساعي المطلوبة في العلاقات معهم من قبل القيادة المحلية"، وبالأخص التأثير فيهم مما أدى إلى الاهتمام بحماية الحجاج من تأثير كهذا.

وكان يجب على القنصلية إعارة اهتمام خاص إلى رعايا روسيا الذين بقوا - بعد انتهاء موسم الحج في الجزيرة العربية للإقامة وأَخْذ المال من أبناء الوطن، وليس من العسير التكهن بأن السلطات الروسية توافرت لديها معلومات ومعطيات عن الحجاج من المناطق الإسلامية في الإمبراطورية الذين تضرروا من تصرفات أبناء وطنهم المقيمين في الجزيرة العربية؛ إذ استغل بعض المحتالين موسم الحج لتنفيذ أهدافهم، وأكدت السفارة أن حمايتها قد أفاد منها لا رعايا روسيا وحدهم "بل ومعهم أهالي الإمارات الأخرى في آسيا الوسطى الذين تقدموا باحتياجاتهم إلى روسيا"(٣) غير أنه كان ينبغي اتخاذ الموقف على نحو مغاير إزاء أولئك المنحدرين من مناطق خارج حدود روسيا، ومن خانات آسيا الوسطى الذين قدموا إلى الحجاز لأغراض سياسية، وبعد مراقبة تصرفاتهم، ونوعية تفكيرهم تبيّن أنه يجب عدم دخول موظفي القنصلية معهم في "علاقات قريبة" حتى في

---

(٢) المصدر السابق، الورقة ٤ وجهًا وظهرًا.

(٣) المصدر السابق، الورقة ب ظهرها - ٧.

حالة سعي أولئك إلى السمو في أعين أبناء وطنهم "بهدف إنجاح جهودهم الرامية إلى نسف نظام الأمور القائم في الوطن". ويبدو أن الخشية كانت مرتبطة بالدرجة الأولى مع التصرفات المعادية المحتملة من العدو القديم للإمبراطورية الروسية الدولة العثمانية.

وتضمنت التزامات القنصلية التعرف على دروب انتقال الحجاج، وجمع المعطيات الإحصائية عن تعدادهم و"موطن أصولهم"، وكان يجب إيلاء العناية التامة إلى أقرب ميناء إلى المدينة المنورة - ينبع، وكذلك إلى الخليج العربي الذي كان يصل عن طريق موانئه قسم غير قليل من الحجاج. وطلب من القنصل في حالة ما إذا رأى أن ذلك الأمر ضروري أن يتعين وكلاء في بعض النقاط الأكثر أهمية، وإرسال التقارير بهذا الخصوص.

ومن المفهوم أن التأثير - الذي أبدي أثناء موسم الحج - في الحجاج من رعايا روسيا، ومن آسيا الوسطى قد مس بشكل مباشر مصالح السلطات الروسية، وضمنا في حالة توخيه الغايات المنظور إليها بصفتها معادية، غير أن السفارة لم تقتصر على مهام القنصلية في درس المشاكل المتعلقة بالحجاج من روسيا وخانات آسيا الوسطى، بل أرادت معرفة كذلك التأثير الذي تخلفه الرحلة إلى مكة والمدينة في رؤية الشعوب المسلمة بوجه عام، والأهمية التي اكتسبها لقب الخليفة العائد إلى السلطان العثماني، و"إلى أي حد يحظى بالتبجيل في شتى أوساط المسلمين من غير رعايا الدولة العثمانية، وكذلك مدى أهميته في أعينهم، ووضعه السياسي بصفته حاكمًا لإمبراطورية تنتمي إلى مصاف الدول الأوروبية"(٤).

وهذه التعليمات تبين كذلك أن الدبلوماسية الروسية كانت تنظر إلى الحج من خلال مؤشر العلاقات الروسية - العثمانية، ومع النظر

---

(٤) المصدر السابق، الورقة ٨ ظهرها - ٩.

إلى إمكانية استغلاله من قبل العثمانيين بغية إشعال التناقضات بين الطوائف الدينية داخل الإمبراطورية الروسية نفسها.

أكدت السياسة مخاوف السلطات من المعلومات التي أوردها النقيب دولتشين

وقد أكدت السياسة مخاوف السلطات من المعلومات التي أوردها النقيب دولتشين المرسل إلى الحجاز في مهمة من قبل هيئة الأركان العامة الروسية، ومما أفاد به ضمنا عن شخص أقام في المدينة المنورة أصله من تتر محافظة إستراخان هو عبدالستار الذي شيد في المدينة المقدسة - بالتبرعات المجموعة في روسيا - مدرسة دينية كان يسكن في أروقتها حجاج من روسيا، وإذا توفي أحد ما منهم؛ فإن ممتلكاته ونقوده كانت تخفى "بشكل مخالف تمامًا للضمير"، وكانوا يتصرفون على هذا النحو أيضًا تجاه تلامذة المدرسة، وقد حاول عبدالستار وأقرب مساعديه - كما كتب دولتشين - "الإيحاء بكل السبل إلى أنصاره المقيمين في روسيا بأن الهجرة؛ أي: الانتقال إلى دولة تحكمها قيادة إسلامية تشكل واحدة من التزامات كل مؤمن"(٥). وكتب دولتشين كذلك ضمن تقاريره أن الشيخ عبدالقادر المدني وضع - بتكليف من عبدالستار ومساعديه - كراسة تؤكد هذا المفهوم معتمدة على آيات القرآن الكريم؛ لإرسالها إلى روسيا حيث "يمكنها إثارة" الغليان بين قسم معين من السكان المسلمين(٦). "وعلى أية حال فإن التتر القاطنين في تلك المدينة المقدسة عاشوا على نفقة إخوتهم الحجاج من روسيا الذين خدموهم إبان مكوث أولئك في الحجاز، وسافروا إلى روسيا لجمع الصدقات"، وتسنى لدولتشين أن يعثر على مهاجر واحد فقط هو تاجر ثري سابق فرَّ إلى المدينة المنورة هربا من الإفراط في

---

(٥) تقرير النقيب دولتشين عن إيفاده إلى الحجاز. سانت بطرسبورغ. المطبعة العسكرية سنة ١٨٩٩م، ص ٥٧.

(٦) المصدر نفسه.

الشراب "وهو الذي لم يهتم بأمر الحجاج وكسب خبزه وقوته بعرق جبينه"(٧).

وعلى هذا فإن استيضاح كل عواقب تأدية الحج من قبل الحجاج من روسيا بمساعدة موظفي القنصلية استهدف جمع المعلومات وتحليلها سواء عن تصرفات الدولة العثمانية المحتملة غير الودية تجاه روسيا، أو الأخطار الممكنة بحدوث قلاقل بين المسلمين في روسيا.

وارتباطا بالمهام المشار إليها أعلاه لم يكن بمحض الصدفة أن تناط بالقنصلية مهمة تحديد "القدر العام من سلطة السلطان في الجزيرة العربية والأراضي المتاخمة والمصاقبة لها"، وإشارات السفارة إلى أن إبراهيموف وهو نفسه المسلم المسموح له بزيارة الأراضي المقدسة كان متمتعًا بقدرة نادرة على إقامة الصلات اللازمة، ودراسة الواقع المحلي غير أنه قد تطلب منه إبداء منتهى الاحتراس "لئلا يغدو بالمرة عرضة لتهجمات المهاجرين الخطرين والماكرين، ولا يوقظ الآمال غير المتحققة بين السكان"(٨). وعدا استيضاح متانة موقع الدولة العثمانية عند الحجاج طلب من إبراهيموف إعارة عناية خاصة إلى "السياسة التي تنتهجها بريطانيا في هذه الأمكنة". وأفادت تعليمات السفارة القنصل بأن بريطانيا العظمى "تستغل الحج وسيلة لتقارب المسلمين من رعاياهم مع العرب"، وفي رؤيتنا أنه لا يمكن وقوع مثل هذا التوسع في أهمية بريطانيا في العالم الإسلامي وفي الشرق عمومًا(٩). "وفي الوقت نفسه لم تستطع التأمل في قذف التحدي الجاد في وجه بريطانيا غير أن مهمة تحجيم التأثير البريطاني وعرقلة نموه كانت تمامًا في استطاعة الدبلوماسية الروسية. ولأجل هذا تعين على القنصل أن يطرح سواء الموقف

---

(٧) المصدر السابق، الورقة ٥٦.

(٨) أرشيف السياسة الخارجية للأمبراطورية الروسية، الملف، ٣٣١٢، الورقة ١٠.

(٩) المصدر السابق، الورقة ١١.

الطيب الذي تبديه نحو الإسلام الدولة الروسية وحكومتها أم أيضًا رغبتها في الحفاظ - وسط العالم الإسلامي - على نظام الحكم الحقيقي الأكثر انسجامًا مع حاجاته. وتوخي بهذا الهدف أيضًا اكتساب ثقة السلطان العثماني الذي سيثمن مودة القيصر الروسي، ويتخذ إزاءه موقف "الإخلاص الصريح بصفته حليفًا وفيًا".

ودخلت في دائرة أنشطة القنصل المعين حديثًا - وفقًا للتعليمات أيضًا - مراقبة حالة العلاقات بين الحجاز واليمن، وكذلك الوضع في نجد(١٠). وأكدت رسالة التعليمات أنه تقع في تبعية أكبر إلى بريطانيا أراضي سلطان مسقط وإمام عمان والأراضي الخليجية الساحلية الأخرى. ومع أنه لم يكن ممكنًا الدخول معها في علاقات مباشرة فقد كان واجبًا على القنصل استغلال "قدوم الشخصيات المتنفذة من هناك لتأدية الواجبات الدينية والتعرف تدريجيًا بها، واكتساب الثقة لديها، والاحترام والتوصل إلى بعض التأثير فيها"(١١).

وأشارت السفارة إلى أن إقامة أمثال هذه الصلات من شأنها أن تخدم من جهة "إضعاف جاذبية البريطانيين القوية جدًا في هذه الأمكنة، وفي الوقت ذاته كَسْب التأثير في السلطان العثماني الساعي إلى الحفاظ على سلطته هناك، وحتى توسيعها وهو الذي تعد صداقته أمرًا مرغوبًا فيه دومًا، ويمكن أن تكون نافعة لنا في حالة التعقيدات في الشرق المتوقع حدوثها"(١٢).

واستغلالاً للتناقضات ما بين الدولة العثمانية وبريطانيا علقت الدبلوماسية الروسية آمالها على توهين كلتا الدولتين، والتقليل من الخطر الناجم ضد بلادها في الاتجاه الجنوبي، وكذلك التوصل إلى توفير الظروف الأكثر ملاءمة ومواءمة لأنشطة روسيا ورعاياها في

---

(١٠) المصدر السابق، الورقة ١٢.

(١١) المصدر السابق، الورقة ١٢ ظهرها.

(١٢) المصدر نفسه.

الشرق الأوسط. وليس من الصدفة أن القنصل قد كلف بوجوب توجيه العناية المركزة إلى ظروف التجارة عمومًا والروسية بشكل خاص، ثم إطلاع الحكومة الإمبراطورية على تصوراته وحساباته بخصوص إمكانات تسويق البضائع الروسية، وإقامة العلاقات التجارية بين روسيا والحجاز، والتي نظر إليها كذلك بصفة الموصل الرئيس للنفوذ السياسي. وكلف القنصل بإقامة أفضل العلاقات والصلات مع السلطات المحلية؛ بغية تأمين الظروف للذود عن المصالح التي أنيطت به حمياتها.

وإذ توجه إبراهيموف نحو محل تعيينه بدأ وهو ما يزال في مصر، حيث مر بها في طريقه إلى جدة مقر عمله التمثيلي والاستعلامي. وفي الإسكندرية قدم القنصل إلى الخديوي الذي "أبدى إعجابه الكبير بصدد تعيين شخص مسلم" في منصب القنصل. وأفاد إبراهيموف أنه وفقًا لرأي الخديوي؛ فإن الطريق إلى المدينة المنورة عبر ميناء ينبع خطر وغير مريح للغاية بالنسبة إلى الحجاج من حيث طوله وانعدام الماء فيه(١٣)، وطلب الخديوي من القنصل إقناع شريف مكة بنقل موقع نزول الحجاج من ينبع إلى رابغ عند منتصف الطريق ما بين جدة وينبع وهو ما سبق أن طلبه الخديوي من الشريف بلا جدوى.

وصل القنصل إلى جدة في عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٦م على متن باخرة للشركة الخديوية تحت الراية القنصلية الروسية، وكان متأثرًا خصوصًا بالاستقبال الذي أُبدي له من قبل رعايا روسيا "الذين تقدموا إليَّ على الطريقة الشرقية مادين لي اليدين معا في آن واحد للمصافحة، ومسحوا بعد هذا براحتي اليدين على الوجه دليلاً على التوقير الكبير لي والاحترام"(١٤). وتقليد المراسيم الدبلوماسية في

---

(١٣) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي. رقم التصنيف ٤٨٢، الملف ٧٧١، الورقة ٢.

(١٤) المصدر نفسه، الورقة ٤.

ذلك الوقت نفسه يتمتع اليوم بغير قليل من الاهتمام والطرافة. عند وصول القنصل دارت له محادثة قصيرة في مكتب الديوان مع قائم مقام جدة الذي قدم إلى القنصل باسم الرئيس صهوة جواد. ولم يربك القنصل قيظ حزيران (يونيو) الخانق. "قمت مرتديًا معطفًا عسكريًا أبيض، ومعتمرًا خوذة بيضاء ذات حافة أمامية بأول رحلة لي في المدينة على ظهر حصان بخطى وئيدة، وبرفقة مندوبين عن جميع القنصليات [وكانوا في استقبال القنصل الروسي في الميناء] مرتدين البزة الرسمية وفي أيديهم القضبان المعدنية"(١٥)، واستقبل التجار الجالسون في دكاكينهم والأهالي الدبلوماسي "بالقيام والوقوف مع رفع الأيدي ووضعها على الهامة".

وفي مكان السكن بدأ إبراهيموف رأسا باستقبال الزوار الذين أبدى لهم عزمه على التوجه إلى مكة المكرمة. وسرعان ما تقدم إليه عشرة أشخاص من "الوكلاء" مقترحين "تسجيله في أية شركة سياحية للقيام بالرحلة إلى مكة". واستوضح القنصل أن هؤلاء الوكلاء يعينون الأدلاء الذين يقسمون جملة الحجاج القادمين حسب القوميات، ويصطحبونم إلى الطريق إلى مكة. ويخضع الحجاج لسلطتهم الكاملة، ويتعرضون من جانبهم إلى أنواع المشاكل كافة، وبالطبع رفض القنصل الإفادة من خدماتهم.

وسرعان ما استقبل إبراهيموف قائم مقام جدة خورشيد باشا، وتلقى برقيتين تهنئة من والي الحجاز إسماعيل حقي باشا وشريف مكة. وفضلا عن هذا تلقى خبرًا من "المحكمة التجارية" المحلية بصدد النظر في كافة الدعاوى التي يشارك طرفا فيها رعايا روسيا والدعوة للحضور أثناء المرافعات القضائية فيها من قبل موظفي القنصلية. وتعرف إبراهيموف كذلك على قناصل الدول الأجنبية الأخرى في جدة وباشر التعامل معهم. وكتب إبراهيموف بأن

---

(١٥) المصدر السابق، الورقة ٤ ظهرها.

الاستقبال الذي أبدي له ومراسيم الاحتفال بقدومه إلى جدة، وامتطاء صهوة الجواد بما لم يسبق له مثيل بالنسبة إلى جميع القناصل الآخرين "يؤكد قناعة السكان المحليين بعظمة روسيا، وحتى الانتشار في وسطها للرأي القائل بأن القيصر الروسي الأبيض هو أقدم قيصر بين جميع القياصرة والحكام في الكرة الأرضية بأسرها"(١٦). وطلب القنصل من الرئاسة السماح له بمناسبة قدومه بإقامة وليمة لجميع رعايا روسيا.

ولدى الإفادة باقتراب موعد حلول عيد الأضحى كتب القنصل أنه يجتمع في مكة ذلك اليوم ما يقارب (١٣٠,٠٠٠) شخص. وحلل القنصل في تقاريره الأولى مشاكل الحجاج من الإمبراطورية الروسية، التي اتضح أن معظمها يرتبط بمصاعب الطريق عبر أفغانستان وبشاور والهند، وقد يكون التأخير أحيانًا في ختم جوازات السفر "أو بدون أية أسباب على الإطلاق".

ولم يتح لإبراهيموف نشر العمل في الحجاز فلقد توفي يوم ١٠ تموز (يوليو) عام ١٨٩١م (٤ ذي الحجة ١٣٠٨هـ) ولاحقًا لم يعين في هذا المنصب مسلم.

بيد أن أعمال قنصلية الإمبراطورية الروسية تواصلت، واحتوت المراسلات الدبلوماسية الروسية آنذاك معطيات طريفة ومهمة بصدد تجارة الرقيق في الحجاز، وأعلم سكرتير القنصلية نكيتنيكوف في تقريره بتاريخ ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ١٨٩٢م (٢٢ ربيع الثاني ١٣١٠هـ) بأنه قبل نصف عام في جدة إثر فرض الحظر على بيع العبيد والإماء وشرائهم؛ شكلت محكمة خاصة للنظر في القضايا حول عتق من سبق بيعهم من الرقيق، غير أن السلطات المحلية قامت - خفية - بإعادة بيع العبيد الذين أعتقتهم المحكمة المذكورة

---

(١٦) المصدر السابق، الورقة ٦ ظهرها.

"لصالحها"(١٧)، وعلاوة على حوادث الاستغلال والارتشاء الأخرى للسلطات أثار هذا نقمة قوية بين القبائل العربية. واستنبط سكرتير القنصلية الاستنتاج بأن منع العبودية دون استئصال هذا الشر لا يلحق الضرر إلا بالبدو الذين زاولوا تجارة الرق.

وهؤلاء البدو الناقمون قاموا بقطع (كيبل) الهاتف المفضي إلى سواكن، والأسلاك (التلغرافية) بين جدة ومكة والطائف، وكذلك صاروا ينهبون القوافل بنشاط، وأرسلت السلطات القوات؛ لتنظيم دوريات حراسة على الطريق من مكة وجدة، وشددت حامية جدة.

والأمر أشبه ما يكون بأن الدبلوماسي لم يتمرس جيدًا بعد في فهم الواقعيات المحلية، فهو مثلاً يعلم عدم رضا السكان المحليين عن شريف جدة الذي "اتسم بالظلم والقسوة"(١٨)، وليس معروفًا لدى ذلك ما إذا كان يقصد شريف الحجاز القاطن أساسًا في مكة أم قائم مقام جدة. مهما كان من أمر فقد قيل عن هذه الشخصية النظامية إنها تستخدم "بعض الأشخاص الذين يقومون وفقًا لأوامره بأعمال السلب والنهب ويشاطرونه الغنائم".

وكانت موضع اهتمام القنصلية بالطبع التعيينات والتنقلات بين الشخصيات النظامية الرئيسة في الولاية. وقد أخبر مدير إدارة القنصلية براندت السفير الإمبراطورية أن القائم بأعمال قائم مقام جدة سلم يوم ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٩٤م (٧ جمادى الأولى ١٣١٢هـ) هذا المنصب إلى القائم مقام الجديد محمد عساف أفندي الذي هو محسوب والي الحجاز حسن حلمي باشا وصنيعته(١٩)،

---

(١٧) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي. رقم التصنيف ٤٨٢، الملف ٧٧١، الورقة ٤٧.

(١٨) المصدر السابق، الورقة ٢١.

(١٩) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي. رقم التصنيف ٤٨٢، الملف ٧٧١، الورقة ٤٠.

وقد صرح عساف أفندي بأنه يزمع فعل الكثير لتحسين ظروف المعيشة في جدة، وقرر تمديد (الكورنيش) الذي بديء به مؤخرًا، والذي كان يستخدم لنزول الحجاج.

وفي يوم ١٠ شباط (فبراير) سنة ١٨٩٥م (١٥ شعبان ١٣١٢هـ) أفاد براندت بوصول حلمي باشا إلى جدة من مكة يوم ٢٠ كانون الثاني (يناير) (٢٤ رجب) لدى عودته إلى الحج. وقد هنأ السكان المحليون الباشا بترقيته مؤخرًا إلى رتبة مشير. وتحدث براندت عن لقاءاته مع حلمي باشا التي من ضمنها زيارة الباشا إلى القنصلية الإمبراطورية والاحتفال بيوم ميلاد السلطان. وذكر براندت أن الوالي الجديد تميز في الجانب الأفضل عن سابقه أحمد راتب باشا الذي لدى قدومه إلى جدة لم يقم بزيارة القناصل، و"أهمل مطالبهم العادلة"(٢٠)، وأعرب براندت عن الأمل في أنه إذا لم تشل نوايا حلمي باشا الطيبة من قبل شريف مكة والشخصيات الأخرى المهتمة باستغلال الحجاج؛ فإن القنصلية سوف تتاح لها إمكانية إسباغ الحماية على رعايا روسيا الذين يؤدون فريضة الحج.

وكان حظ الخدمة في جدة لبعض الدبلوماسيين الروس مأساويًا. ففي أحد أيام آيار (مايو) سنة ١٨٩٥م (ذي القعدة ١٣١٢هـ) هاجم البدو مدير إدارة القنصلية براندت ومجموعة من موظفي القنصلية الأخرى أثناء قيامهم بنزهة. وأصيب براندت بجرح ناري خفيف في وجهه، وقتل طبيب القنصلية البريطانية، وأصيب آخرون بجراح أو صدمة عصبية. وتوجه براندت لغرض التداوي إلى مدينة السويس. وعدَّت السلطات أن المهاجمين الذين تسنى لهم الاختفاء عبَّروا بهذا التصرف عن عدم رضاهم عن تدابير إدارات الحجر الصحي ضد وباء الكوليرا. وفكر السكان المحليون "بأنها كانت تدلق الدواء من

---

(٢٠) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي. رقم التصنيف ٤٨٢، الملف ٧٧١، الورقة ٤٧.

الأحقاق والأنابيق، وتجري عملية التبخير؛ وهو ما يسبب وفاة البدو والحجاج"(٢١). والبدو الذين شعروا بالحقد على الأطباء خربوا في مكة مقر العيادة الطبية، وجهاز التطهير من العدوى فيها، وبحثوا عن أطباء الحجر الصحي الذين اختبؤوا في القلاع المكية. وأفادت القنصلية كذلك بأن هذه الأحداث كانت قد سبقت بنقمة التجار المحليين والبدو من فرض الحظر على البيع في السوق للبطيخ الأحمر والأصفر، "وقد اصطحب ذلك بأعمال العنف ضد أطباء مكة".

وفي ذلك الوقت نفسه اعتقدت القنصلية بأنه إذا كان سبب الهجوم السعي للانتقام من الأطباء لكان أكثر انجسامًا مع المنطق شنه لا على الدبلوماسيين - الذين كان بينهم طبيب واحد فحسب - وإنما على مجموعة الأطباء الذين كانوا عادة شأن الدبلوماسيين يتجمعون معا ولكن في موضع آخر. ولهذا طرحت رواية تقول: إن سبب الهجوم يكمن في "رغبة أشخاص معادين للشريف في إحداث ما ينغص عيشه"(٢٢). وشكا السكرتير نكيتينكوف غياب المعلومات الوثيقة ذاكرًا ذلك السبب المعهود لدى الموظفين الروس في الخارج: "وهو أن المعلومات تقليدية، ومع ذلك لا يرغب في الإفادة بها الأشخاص المقربين إلى القنصلية لعدم أهمية المحتوى المحصول عليه" و"بنتيجة الخشية من أية عواقب أخرى عليهم"(٢٣).

وفضلاً عن ذلك أفاد الترجمان إيمايف بأنه كما يدعي سمع أن الأمير ابن رشيد "بعث إلى المدينة شيوخًا عنه ينقلون مطالبة الوالي

---

(٢١) تقرير سكرتير القنصلية بتاريخ ٥ حزيران (يونيو) سنة ١٨٩٥م (١٢ ذي الحجة سنة ١٣١٢هـ) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي ٤٨٢، الملف ٧٧١، الورقة ٥١ ظهرها.

(٢٢) المصدر السابق، الورقة ٥٣.

(٢٣) المصدر السابق، الورقة ٥٣ ظهرها.

بطرد أصحابه الكفار من الأراضي المقدسة"(٢٤)، وتحدث الترجمان كذلك عن هجوم السكان المحليين على المستشفى، وقيامهم بتحطيم الصيدلية والأشياء النفيسة، وأخذهم الأوعية، وجرهم للمرضى من أرجلهم جرًا. وعدا ذلك ما أفاد به إيمايف من أخذ "أشخاص مغرضين" عقب شن الهجوم على القناصل كانوا يروجون بين الحجاج شائعة عن عدم الحصول على ودائعهم من القنصلية، وبعد المفاوضات فقط مع "الشيوخ الطشقنديين" تسنى للمترجم إقناعهم بصرف النظر عن استرجاع النقود التي دفعوها.

وتشهد هذه المعطيات على المكائد والدسائس التي تحاك ضد القنصلية الروسية، وأسهم فيها بمشاركة نشيطة ضمنًا المنحدرون أصلاً من الأقاليم الإسلامية في الإمبراطورية الروسية، وبالدرجة الأولى آسيا الوسطى والذين صاروا من رعايا الدولة العثمانية.

ورأت السلطات العثمانية في الهجوم على القناصل واحدًا من أعراض تمرد البادية؛ فقررت تلقين البدو درسًا من خلال اعتقال أكثر من ثلاثين بدويًا من قبيلة حرب بضمنهم واحد من كبار شيوخها. وعلاوة على ذلك حظر على تجار الحجاز جميعًا أن يبيعوا للبدو الرز والدقيق والمواد الغذائية الضرورية الأخرى ضمن حدود أراضي المدن. ولحظت القنصلة لدى إخبارها بذلك السفارة في إسطنبول أن أمر اعتقال البدو المفاجئ، ومنع بيع المواد الغذائية قد فسر برده إلى "رغبة السلطات في أن تكون لديها رهائن منهم لوقت الحاجة، ومع الجوع سيسهل إقناع البدو بتسليم الأشخاص المذنبين في الهجوم"(٢٥).

---

(٢٤) التقرير المؤرخ في ١٤ حزيران (يونيو) سنة ١٨٩٥م (٢١ ذي الحجة سنة ١٣١٤هـ)، أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي ٤٨٢، الملف ٧٧١، الورقة ٥٧.

(٢٥) التقرير المؤرخ في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٩٥م (١٠ جمادى الثانية سنة ١٣١٣هـ)، أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي ٤٨٢، الملف ٧٧١، الورقة ٦٠ ظهرها.

بيد أن التدابير المتخذة لم تخفض مستوى الاضطرابات في العلاقات بين البدو والسلطات العثمانية. وفي جدة ارتفعت أسعار المواد الغذائية والوقود وكراء الإبل. وأفادت القنصلية بأن البدو المقيمين في ضواحي رابغ طالبوا بإخراج الأتراك من هذه المدينة؛ مما أدى إلى استدعاء تعزيزات إلى هناك ولدى ذلك شددت الحاميتان في مكة وجدة. وقدر الوضع في الحجاز في تلك الفترة بأنه خطر على الأتراك، ورأوا أن مشاعر عداء البدو كما قدرت القنصلية قد اكتسبت طابعًا أكثر حدة، وازدادت نقمتهم على الشريف(٢٦). وفي سنة ١٩٠٠م (١٣١٧هـ) أفاد القنصل الروسي فون تسيمرمان عن نقص الماء في جدة "وفشل المحاولات؛ لإقامة منظومة صحيحة هناك لإسالة الماء لمقاومة مالكي الصهاريج (الفناطيس)". وفي غياب تسيمرمان في حزيران (يونيو) سنة ١٩٠١م (صفر ١٣١٩هـ) كتب مدير إدارة القنصلية كما كان يسمى حينذاك القائم بالأعمال بدرجة المستشار المفوض توخلوكا إلى السفير في إسطنبول "أن جدة تتزود بالماء قبل كل شيء من الفناطيس (الصهاريج) التي يعمد أصحابها أثناء موسم الحج إلى سرقة الأموال من جيوب الحجاج دون وازع من ضمير بإعطاء الماء لقاء سعر مرتفع جدًا"(٢٧). وكانت الصهاريج (الفناطيس) سيئة؛ مما جعل الماء غير صافٍ بالدرجة المعهودة.

غير أن الفناطيس لم تكن لتمتلئ بالماء إلا في موسم الأمطار. وأفاد توخلكا بأن الماء في وقت الجفاف كان يؤخذ كذلك من آبار غير كبيرة، أو من الحفر التي تحفر خارج المدينة على مسافة ساعة أو ساعة ونصف من الطريق؛ نظرًا لأن المياه الجوفية لا توجد بكمية كافية

---

(٢٦) المصدر السابق، الورقة ٦١ ظهرها.

(٢٧) ٨ حزيران (يونيو) سنة ١٩٠١م (٢١ صفر سنة ١٣١٩هـ)، أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي ٤٨٢، الملف ٧٧٥، الورقة ٧.

إلا في ضواحي جدة، وقد تطلب حفر الحفر، ونقل الماء كثيراً من الجهود؛ ولهذا فإن هذا الماء كان مكلفًا وعليه كان يباع بثمن مرتفع.

ولكن حتى في الأعوام ذوات المطر الغزير لم تكن المياه كافية للحجاج. وخلال موسم الحج الذي سبق تحرير ملحوظات توخلوكا كانت الأمطار قليلة. وبيع الماء بسعر ١٥ فرنكًا مقابل الطن الواحد وكان "رديء النوعية"(٢٨). وكان احتياط الماء المجلوب من الحفر خارج المدينة – في ذلك الوقت – يملأ أربعة صهاريج فقط. وفي العام التالي وافق عيد الفطر أن يكون في شهر آذار (مارس)، وكانت الأمطار تهبط على جدة عادة في شهري تشرين الثاني (نوفمبر) وكانون الأول (ديسمبر)؛ ولهذا كانت في انتظار الحجاج فترة عطش ونقص مياه.

وأفاد الدبلوماسي الروسي أن جدة كانت في السابق تتزود بالماء من منظومة إسالة الماء المسماة بالحميدية من خزان المياه الواقع على مسافة ساعتين من الطريق عن المدينة. غير أنه في سنة ١٩٠١م (١٣١٨هـ) لم تخرج منظومة إسالة الماء ولا قطرة ماء واحدة؛ لأنها تعطلت عن العمل بسبب تلفها، وكذلك لأن منسوب الماء في الخزان لم يكن على الارتفاع الكافي المطلوب.

وأفاد توخلوكا بأنه في أواخر عام ١٩٠٠م (أوائل ١٣١٨هـ) حفرت أربعة آبار جوفية لمنظومة "نورتون"، ولكن عقب مرور تسعة أشهر كان اثنان منها غير صالحين، أما الاثنان الآخران فكان مردودهما لا يكفي. ولحظ الدبلوماسي أن هذا الطريق ربما يكون له مستقبل في حالة تقديم أنابيب كبيرة القطر ومضخات جيدة وقوية. وتتجلى السمة لهذا الطريق في أن مصادر تزويد المياه تقع داخل حدود المدينة نفسها.

---

(٢٨) المصدر السابق، ص ٨.

ومن الطريف أن الدبلوماسي الروسي أعطى ضمن تقريره إلى السفير النصائح والتوصيات إلى السلطات العثمانية قائلاً: "أبدًا من المرغوب فيه لو أن الحكومة العثمانية حرصت على ضمان تزويد جدة بالماء"(٢٩)، وحتى حاول توخلوكا إقناع القنصلين البريطاني والفرنسي بالسعي معًا إلى إقناع العثمانيين "بإنشاء منظومة إسالة صحيحة في جدة تضمن حسن تزويدها بالماء" ولكن عبثًا ودون جدوى، وذهبت جهوده سدى وأدراج الرياح؛ وذلك لأنهما كانا يريان أن أي تحسين لظروف الحج لم يكن متناسبًا مع مصالح الدول الأوروبية، وعدًّا من المناسب والضروري انتهاز أية فرصة سانحة لمنع الحج أو تقليصه ما أمكن. وإذ عارض توخلوكا موقفًا بالغ السوء كهذا توصل وفق الأسلوب المعهود والمألوف لدى الدبلوماسيين في ذلك الزمان الى استنباط الاستنتاج الآتي: "يخيل إلي أن منع الحج، أو تقليصه بسبب النواقص وسوء التصرف بشأن تزويد مدينة جدة بالماء؛ مما يبعث العديد من المزعجات والمنغصات"(٣٠)، ويتراءى وراء هذه الآراء ويستشف من خلالها الموقف السياسي لتوخلوكا نفسه الذي يملك وجهة نظره الخاصة بشأن الكيفية التي ينبغي بها حل مشاكل الحجاز، وكيف يجب أن تبنى السياسية الروسية تجاه هذا الإقليم. ويجدر عمومًا التنويه بأن معظم الدبلوماسيين الروس الذين اشتغلوا في جدة تجاوزوا نطاق أطر واجباتهم المباشرة، وما أكثر ما وجهوا إلى المركز اقتراحاتهم بشأن سياسة روسيا، وحرروا تقارير وافية وطويلة فوق العادة مثلاً عن الحجاج.

من الطريف أن الدبلوماسي الروسي أعطى النصائح والتوصيات إلى السلطات العثمانية

وبتاريخ ٢٥ تموز (يوليو) سنة ١٩٠١م (٩ ربيع الثاني ١٣١٩هـ) أبلغ توخلوكا ضمن تقريره السري إلى السفير في إسطنبول تصوراته

---

(٢٩) المصدر السابق، ص ٩.

(٣٠) المصدر السابق، ص ١٠.

بصدد المهام في الحجاز، وهو شأن السكرتير الآخر في السفارة قبله نكيتينكوف؛ إذ كان يحاول أثناء تنفيذه واجبات القنصل استرعاء انتباه الرئاسة إلى نفسه بالأفكار والاقتراحات المتعلقة بسياسة الإمبراطورية الروسية في الحجاز. وبغية دراسة السياسة الروسية لتلك الحقبة من الزمن في المنطقة فإن آراء الدبلوماسي - الذي اشتغل هناك - تمثل أهمية للأمراء فيها، لا سيما وأنها تعتمد على تقييم الوضع في الحجاز. وقد كتب توخلوكا عن المهمة المزدوجة:

"١ - العمل ما أمكن على سلب مكة أهميتها، أما المراقبة الحالية فهي لا تؤثر بالشكل المطلوب في الأراضي التي يقطنها مسلمون من بلادنا.

٢ - مراعاة ألاَّ يغدو المسلمون عندنا أثناء فترة الحج ضحية حوادث النهب والسلب أو فريسة الاستغلال أو عرضة للظروف الصحية السيئة"(٣١).

وإذا كان إنجاز المهمة الثانية يبدو قضية واقعية تمامًا فإن الأولى تولد وتطرح غير قليل من الأسئلة وضمنا حول ماهية الوسائل والسبل التي يمكن تحقيقها بها. وقد حاول واضع التقرير إعطاء الجواب مقترحًا أن بلوغ هذه الغايات ممكن عن طريق الدولة العثمانية. وعند الحديث عن "الاقتراح المعاكس"؛ أي: احتمال التأثير مباشرة في شريف مكة والعرب والبدو "الأمر الذي من شأنه أن يعني افتراض انفصال الحجاز عن الدولة العثمانية" كتب توخلوكا أنه ليس مرئيًّا بعد أن الدولة العثمانية عاجزة عن الاحتفاظ بالحجاز، ولكن حتى في حالة حدوث هذا الأمر في رأي السكرتير ستكون ثمة عقبات تحول دون التأثير المباشر على الحجاز وهي بالذات:

"١ - بين القبائل البدوية عداء بصفة دائمة.

---

(٣١) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي. سنة ١٩٠١م (١٣١٨هـ)، رقم التصنيف ٤٨٢، الملف ٧٥، الورقة ١٠٠.

٢ - العنصر العربي في الحجاز هو الذي يتمثل بالذات جذر النزعة الإسلامية الشاملة نحو الوحدة الإسلامية.

٣ - لكي يكون التأثير فاعلاً ربما يتعين اللجوء إلى القوة العسكرية"(٣٢).

وفي مثل هذه الحالة سيتعين على الدول - علاوة على ذلك التصرف معًا؛ وذلك لأن إحدى الدولتين لن تسمح بالاستحواذ على السلطة في الحجاز للدولة الأخرى (وكان المقصود بهما روسيا وبريطانيا)، وعدا ذلك كل دولة لديها رعايا مسلمون - أن تحترس من إثارة التعصب الإسلامي ضدها لوحدها.

وتوصل سكرتير السفارة الى استنباط الاستنتاج الآتي: "أفضل شيء هو بقاء الحجاز في أيدي العثمانيين؛ وذلك لأن روسيا سوف تمتلك الفرصة والإمكانية للتأثير في الدولة العثمانية في إسطنبول. غير أنه من المهم لأجل هذا أن تمارس الدولة العثمانية نفسها التأثير اللازم في الحجاز، أما في واقع الأمر فقد كانت تسود هناك الفوضى". وحجج توخلوكا في هذا الاستنباط الآتي: أن حدود سلطات الوالي والشريف ليست مرسومة بالشكل المحدد إلى الحد الكافي. والوالي يتراجع في كل شيء أمام الشريف، ويستغل الحجاج من قبل السلطات والأهالي معا، أما البدو فينهبونهم ويسلبونهم"(٣٣). ويرى الدبلوماسي المخرج من هذا تعيين الحكومة العثمانية في الحجاز واليًا نشيطًا وفعالاً، وفي الوقت نفسه شريفًا ونبيلاً وخضوع الشريف للوالي تحت شعور الخشية من العزل والخلع، أما البدو فيجب أن تتولى تهدئتهم القوات المسلحة، وينبغي دفع المعونات إليهم بشكل صحيح.

---

(٣٢) المصدر السابق، الورقة ١٠٠ ظهرها.

(٣٣) المصدر نفسه.

كان من الأصح توجيه هذه المقترحات إلى الحكومة العثمانية نفسها التي كان تنفيذها لهذه المقترحات في منتهى الصعوبة عليها. ومع ذلك تفاءل الدبلوماسي في رد الفعل الطيب بالنسبة له من قبل الرئاسة؛ وذلك لأنه رأى أن تحقيق الخطوة التالية يتمثل في أن تجري الدولة العثمانية تحسين بناء الحجاز وتنظيمه، وأن يصطحب ذلك تشديد التأثير الأوروبي وتقويته. وقد أشير ضمناً إلى إنشاء وحدات عسكرية في جدة، وتزويد جدة وينبع بالماء، ومد خطوط البرقية من ينبع إلى المدينة وخط للسكك الحديدية من جدة إلى مكة.

وكانت الدولة العثمانية نفسها ستحصل على المنافع من وراء تحسن كهذا للنظام البنائي في هذه الولاية. ورأى كاتب التقرير أن تنفيذ خطته هذه (وهو ما كان يبدو أن الدبلوماسية الروسية يجب أن تشجع العثمانيين عليه) من شأنه - لو حدث فعلاً - عدم الاقتصار على تقليل الخطر المنطلق من الحجاز، وإرضاء الدولة العثمانية بل وفي الوقت نفسه إضعاف هذا الخطر نفسه الذي يهدد الإمبراطورية الروسية. وكان عرب الحجاز يشعرون بالثقل الشديد لسيطرة العثمانيين؛ لأنهم يرون فيهم التمدن الأوروبي المناقض لروح الإسلام، وطبقًا للخطة المطروحة من قبل الدبلوماسي الروسي ينبغي أن يوطد العثمانيون في الحجاز سلطتهم، ويزاولوا إجراء الإصلاحات؛ ونتيجة لذلك سيغدو العرب أشد سخطًا عليهم، لذلك سيكون عسيرًا على العثمانيين استخدام العنصر العربي؛ لتقوية وتشديد تأثيرهم ونفوذهم في المسلمين الأجانب عنهم(٣٤).

وكتب الدبلوماسي أنه في حال تنفيذ اقتراحه فستحصل الدول من الدولة العثمانية أن تكون مكة المكرمة والمدينة المنورة مفتوحتين للأوروبيين حين يذهب إليهما موظفو الصحة العامة وأرباب الأعمال

---

(٣٤) المصدر السابق، الورقة ١٠١ ظهرها.

والوكلاء عن الشركات والمهندسون والتجار وسواهم. وتعين الدول هناك ممثلين قنصليين عنها في البداية من المسلمين ثم من النصارى، وعندئذ:

١ - ستدنس مكة بالكفار؛ وتفقد - جزئيًا - أهميتها لدى المسلمين.

٢ - يفقد الحج طابعه المتميز الذي ربما يتضاءل مع مرور الزمن.

٣ - سيكون الممثلون القنصليون قادرين على متابعة أفكار الوحدة الإسلامية والنزعة الإسلامية الشاملة، وتحذير حكومات بلدانهم ضدها في الوقت المناسب(٣٥).

وبغض النظر عن النشاط الكبير باتجاه التقارير إلى السفارة في إسطنبول لم يتسن لتوخلوكا أن يحوز رضا الرئاسة بالدرجة الأولى؛ لأن مقترحاته لم تتوافق مع فهم الواقع الحجازي. بيد أن التعرف على اقتراحات سكرتير القنصلية نافع لتشكيل تصور بصدد نموذج أفكار الدبلوماسيين الروس لذلك الوقت، وتنوع وجهات نظرهم نحو أهداف السياسة الروسية وغاياتها في الحجاز، وأساليب انتهاجها وتطبيقها. وقد وصف هو نفسه مشروعه بأنه "نشر التمدن الأوروبي في الحجاز، والتأثير فيه عن طريق الدولة العثمانية ولكن تحت المصالح المشتركة للدول".

واستحوذ على الاهتمام الشديد للدبلوماسيين الروس هجوم بدو الجزيرة العربية على والي الحجاز. وخلال شهر حزيران (يونيو) من سنة ١٩٠١م (صفر ١٣١٩هـ) توجه إلى الحجاز أحمد راتب باشا من مكة قاصدًا مقره الصيفي في الطائف مصحوبًا بكوكبة من حرس وأربعة مدافع غير ضخمة. وكما أفاد مدير إدارة القنصلية توخلوكا السفير الإمبراطوري في إسطنبول فإنه في يوم ١ تموز (يوليو)

---

(٣٥) المصدر السابق، الورقة ١٠١ ظهرها.

(١٤ صفر) من تلك السنة أثناء الرحلة هاجمه البدو واعتدو عليه وعلى أتباعه بالضرب، واستولوا على مدفع واحد بعد قتل أربعة جنود وجرح أحد الضباط(٣٦).

وكان المهم بالنسبة إلى الدبلوماسيين أكثر من الحصول على المعلومات عن هذا الحدث أن يدرسوا على أساس هذا المثال الحالة القائمة في الحجاز؛ فكان الاستنتاج المستنبط هو أن "البدو المحليين في حقيقة الأمر لن يعترفوا بالسلطة العثمانية. كما أن هذه السلطة لم تظهر سيادتها في صحرائهم بأي مظهر وربما أن البدو قاموا بهذا الحدث حتى لا يدفعون الأتاوات". وأفاد توخلوكا بأن البدو لم يعترفوا إلا بمكانة شريف مكة، ولهذا تصرف راتب باشا في كل شيء بالاتفاق معه، وكلاهما يستغلان دون وازع أو رادع من ضمير كلا من الحجازيين والحجاج معًا(٣٧).

وحقيقة أن البدو يزاولون أعمال النهب والسلب وقطع الطريق بصورة جلية، وأوضح الدبلوماسي الروسي أن الشريف لم يعطهم كل ما حسب لهم من النقود والحبوب (وقد كتب عن هذا ضمنا توخلوكا في تقريره بتاريخ ٢٨ آيار (مايو) سنة ١٩٠١م (١٠ صفر ١٣١٩هـ). وراجت شائعات بأن الشريف كان له مما ينهبون نصيبه، أما السلطات العثمانية فلقد كانت أيضًا تراعيهم؛ لكونها منشغلة البال بشأن الانتفاضة في اليمن والقلاقل في عسير. وطبقًا لمعطيات القنصلية الروسية ومعلوماتها كان البدو غير راضين عن نية الحكومة العثمانية أن تمد في الحجاز البرقية والسكة الحديدية. وفي تقرير توخلوكا إلى السفير الإمبراطوري في إسطنبول بتاريخ ٤ تموز

---

(٣٦) المصدر السابق، أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي. سنة ١٩٠١م (١٣١٩هـ)، رقم التصنيف ٨٤٢ الملف ٧٧٥ الورقة ١٤.

(٣٧) المصدر السابق، الورقة ١٤ ظهرها.

(يوليو) سنة ١٩٠١م (١٨ ربيع الأول ١٣١٩هـ) الذي بعثت نسخة طبق الأصل عنه - كما هي العادة الجارية - إلى مدير القسم الأول في وزارة الخارجية أفيد بأنه في هذا اليوم دنا ٢٠٠ بدوي من قبيلة حرب على متون ١٠٠ بعير إلى مسافة قريبة من بوابات سور مكة مزمعين اختطاف الإبل الواقفة والباركة هناك بما على ظهورها من البضائع والسلع. وعقب وصول كتيبة من الشرطة إلى هناك ابتعد البدو. "أعمال السلب والنهب وقطع الطريق من البدو هنا ظاهرة مألوفة"، هكذا علق على هذا الحادث مدير إدارة القنصلية مؤكدًا أنه لا يعير هذا الواقع أهمية خاصة.

وذكرت القنصلية أن الشريف عون الرفيق عين في منصبه "تجاوزا للأشخاص الذين يملكون حقوقاً أكبر فيه"(٣٨)، كما أنه لم يكن محبوبًا ولا صاحب سمعة حسنة بين العرب. وكان يعيش في إسطنبول أيضًا بضعة أفراد من الطامحين في منصب الشريف، وقد أعلمت القنصلية السفير عن احتمالات تعيينهم. وما من ريب في أن تهيئة التوقعات بصدد التغيرات في البنى السلطوية المحلية كانت داخلة ضمن دائرة الواجبات والالتزامات لدى الموظفين القنصليين الروس. ورغم القلة في عدد الأشخاص العاملين تابعت القنصلية تنقلات القوات المسلحة في الولايات الحجازية. وضمن التقرير بتاريخ ١ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٠١م (١٨ جمادى الأولى ١٣١٩هـ) أفيد عن وصول باخرة عثمانية إلى جدة على متنها ٨٥٠ جنديًا. نزل منهم ٢٥٠ جندياً في جدة، وأرسل ٦٠٠ جندي إلى اليمن(٣٩). ودون حساب القادمين الجدد كان مجموع المرابطين في الحجاز ٥ - ٦ آلاف جندي ضمنهم طابوران في جدة يبلغ عددهما ٦٠٠ فرد، وكان في حصن جدة ٤ مدافع حصون ومدفعان من مدافع الميدان الحديثة

---

(٣٨) الوثيقة المقتبس عنها. الورقة ١٥.

(٣٩) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي سنة ١٩٠١م (١٣١٩هـ)، الملف ٧٧٥، الورقة ١٠٨.

الطراز. وقد احتفظ العثمانيون في مكة والطائف والقلاع الصغيرة باثني عشر طابورا مشاة يضم ٣٠٠٠ - ٣٥٠٠ فرد، وفي المدينة ٤ طوابير فيها ١٠٠٠ فرد، وعدا هذا رابط في مكة والطائف ٤٠٠ فارس من سلاح الخيالة (الفرسان). وتقدر القنصلية أن عدد المدافع ٢٢ مدفعًا. وكانت لدى شريف مكة وتحت تصرفه كتيبة من البدو تضم ٦٠٠ فرد وإلى حد ٨٠ شخصًا من الحرس الخاص. وأحاط مدير إدارة القنصلية أيضًا السفير علمًا بصدد تمرد الجنود الذي بدأ في جدة يوم ٣٠ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٠١م (٧ جمادى الثانية ١٣١٩هـ) وبين ٨٠٠ جندي من حامية جدة كان منهم ٢٥٠ جنديًا حتى ذلك الوقت أنهوا فترة الخدمة العسكرية منذ عامين؛ ولكنهم لم تدفع لهم رواتب في غضون عام كامل. ووقعت حالة مماثلة أيضًا في مدن حجازية أخرى. ولم تكن لدى السلطات أموال لدفع رواتبهم أو تسفيرهم إلى مواطنهم. وفي اليوم المذكور احتل ٤٠ جنديًا مسلحون جامع السوق (مسجد البازار)، وأعلنوا أنهم لن يغادروه إلاَّ إذا دفعت لهم رواتبهم المتأخرة وكذلك يعادون إلى مناطقهم. وعلى أثر هذا احتل ٥٠٠ جندي من حامية مكة - للغرض والمطلب نفسيهما - المسجد الحرام⁽⁴⁰⁾.

لم تكن لدى السلطات أموال لدفع رواتبهم أو تسفيرهم إلى مواطنهم

وفي يوم ١١ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٠١م (٢٨ جمادى الأولى ١٣١٩هـ) أفادت القنصلية بأن الجنود ما يزالون يشغلون المسجد معتصمين فيه. وتحدث قائم مقام جدة قائلاً: إنه بغية دفع الرواتب إلى ١٨٠٠ جندي انتهت فترة خدمتهم العسكرية وإرسالهم إلى أماكنهم يحتاج إلى ٢٠ ألف ليرة عثمانية بينما الخزانة فارغة وخاوية على عروشها.

---

(٤٠) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي سنة ١٩٠١م (١٣١٩هـ)، ٤٨٢، الملف ٧٧٢، الورقة ١١١ وجهًا وظهرًا.

وأتاح الإعراب السافر عن النقمة من قبل الجنود للبدو انتهاز الفرصة السانحة واستغلال الوضع لتنشيط أعمال سلبهم ونهبهم، ونتيجة ذلك غدت الطريق ما بين مكة والمدينة مغلقة تمامًا. وسيطر على الطريق ما بين جدة ومكة بعض شيوخ البدو. ويرى توخلوكا أن "جميع الدول المعنية كان بوسعها المطالبة من الباب العالي (رئاسة الوزراء العثمانية) بأن يفرض في الحجاز كله الإدارة الحسنة والنظام المستتب. علمًا بأن التهديد بمنع الحج من شأنه أن يخلِّف التأثير سواء في الحكومة العثمانية أو في سلطات الحجاز وأهاليه". واعتقدت القنصلية - وهي على حق - أن الباب العالي لم تكن لديه معلومات كاملة عن الاضطرابات الحجازية؛ وذلك لأن كلا من الوالي والشريف يتخذان تدابير صارمة ضد المخبرين(٤١).

وفي يوم ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) (٢٦ رجب ١٣١٩هـ) أبلغ مدير إدارة القنصلية إلى السفير في إسطنبول وإلى غارتفيغ في وزارة الخارجية معلومات بصدد أن الجنود المعتصمين قد حصلوا أخيرًا على أوراق التسريح في إجازة ووافقوا على العودة إلى الثكنات في انتظار الباخرة العثمانية التي يجب أن تقلهم في طريق العودة إلى الوطن(٤٢).

ولاحقًا واصلت القنصلية - بعناية - متابعة الوضع السياسي في الولاية، وفي سنة ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ) تمرد أهالي المدينة المنورة بقيادة أعيانها على والي الحجاز عثمان باشا الذي تسنى له بصعوبة إنقاذ نفسه من التنكيل به الذي كان يتهدده. وقد امتنع ضباط الحامية عن تهدئه المتمردين؛ أي: قمعهم، وبقيت القوات في الثكنات، ولم تخرج إلى الشارع في المهمة التي كلفتها بها السلطات. وقد استدعى

---

(٤١) المصدر نفسه، الورقة ١١٢.

(٤٢) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي. سنة ١٩٠١م (١٣١٩هـ)، رقم التصنيف ٤٨٢، الملف ٧٧٥، الورقة ١١٨.

الاضطرابات في المدينة المنورة قرار عثمان باشا بصدد استيفاء الضرائب من المواطنين الذين منحوا في السابق امتيازات وإعفاءات. ونتيجة ذلك عدوا أنفسهم معفيين من دفع الضرائب.

وفي يوم ٢١ تموز (يوليو) سنة ١٩٠٤م (٩ جمادى الأولى ١٣٢٢هـ) أبلغ القنصل الإمبراطوري الروسي فون تسيمرمان السفير في إسطنبول عن قدوم لجنة من الباب العالي إلى المدينة المنورة، ولدى التحدث عن التمرد الذي قاده زهاء الستين من الشيوخ ذكر القنصل أنهم - كما يبدو - أرادوا بهذا التمرد الانتقام من محافظ المدينة على نواياه المزعومة في القضاء على العديد من أبناء وسطهم الاجتماعي وفق قائمة مسجلة مسبقًا بمساعدة بدو من قبيلة حرب دفع لهم عثمان باشا(٤٣)، وعقب فرار عثمان باشا هرع قادة التمرد إلى دائرة البرقية، واتصلوا بإسطنبول، وطلبوا أن يسمح لهم بمخاطبة السلطان مباشرة، وعندما رد عليهم من هناك الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) طالبوه بتغيير عثمان باشا مهددين في حالة الامتناع عن الاستجابة لمطالبهم بالتوجه إلى السلطات البريطانية وإعلان أنفسهم رعايا لبريطانيا(٤٤). وبهذه المناسبة تساءل القنصل الروسي، هل كانت أحداث المدينة حصيلة دسائس البريطانيين؟. وقد ترسخ اعتقاد القنصل بسبب المصادفة من حيث الزمن بين القلاقل والقدوم إلى المدينة المنورة من قبل نائب القنصل البريطاني الدكتور محمد حسين للنظر في الدعوى المتعلقة بنهب البدو - أثناء الحج - ملكة إحدى المقاطعات الهندية. وأشار القنصل إلى أن أهالي المدينة المنورة كانوا يحملون أسلحة نارية طلقاتها سريعة جلبت إلى الحجاز عن طريق التهريب عبر جدة. وكان البدو مزودين بمثل هذه الأسلحة

---

(٤٣) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي سنة ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ)، رقم التصنيف ٤٨٢، الملف ٧٧٨، الورقة ٣.

(٤٤) المصدر السابق، الورقة ٤ وجهاً وظهراً.

نفسها من صنع الهند، وأفاد القنصل بأنه في ظرف ستة أعوام جلبت عبر هذا الطريق ألف وحدة من هذه الأسلحة، وهي تباع بثمن منخفض إلى حد خيالي - من ٣ إلى ٥ مجيديات فضية (٤ روبلات و ٨٠ كبيكا - ٨ روبلات قرض). وكان الوسيط في التهريب من خلال نقيب أصحاب الزوارق البيت التجاري البريطاني(٤٥)، وإذا توافرت لدى القنصل مثل هذه المعلومات حاول عبثًا توجيه عناية قائم مقام جدة علي يمني بيه. ولقد قارن فون تسيمرمان هذه الحقائق مع توزيع الأسلحة على اليمنيين وسكان السواحل في مناطق الخليج وبلاد الفرس، وهو ما قامت خلفه مصالح بريطانيا السياسية وبالدرجة الأولى نواياها في "تهيئة السكان، وتحريضهم على الوثبة ضد السلطات العثمانية"(٤٦) والتثبيت اللاحق لسلطتها هنا. وكتب القنصل أن البريطانيين بعد امتلاكهم تقريبًا كل الساحل الغربي للبحر تولدت في نفوسهم منذ أمد بعيد الرغبة في "الاستحواذ على الساحل الشرقي كله الأمر الذي من شأنه أن يهيئ لهم المزايا والأفضليات العظمى على الدول الأخرى".

ولدى مقارنة الحقائق توصل القنصل إلى استنباط الاستنتاج القائل بأن البريطانيين كانوا ينوون تقوية نفوذهم في الحجاز ونجد عازلين بذلك عزلاً تامًا لليمن وحضرموت الأمر الذي من شأنه أن ييسر لهم لاحقًا السيطرة أيضًا على هذين الإقليمين كذلك(٤٧). وقد ساعدت على تحقيق البريطانيين هذه الغايات والأهداف بضعة عوامل في مقدمتها "البغضاء بين العرب والأتراك التي تفاقمت بسبب السخط الشديد على ممثلي الإدارة العثمانية سواء بين البدو

---

(45) Gellatly Hankey & Co.

(٤٦) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. سجل الأرشيف السياسي سنة ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ)، رقم التصنيف ٤٨٢، الملف ٧٧٨، الورقة ٥.

(٤٧) المصدر السابق، الورقة ٦. لم تتحقق السياسة البريطانية هذه عندما تمكن الملك عبدالعزيز آل سعود من استعادة الحجاز وضمه إلى الدولة السعودية سنة ١٩٢٤م.

أو الحضر". وأفاد فون تسيمرمان بأن الذي أثار السخط في نفوس البدو هو أن الوسطاء الخبثاء بينهم وبين السلطة لم يسلموا إليهم المعونات المحسوبة لهم بتمامها بل وبتاتاً في بعض الأحيان. وكان أهل المدن يتذمرون أيضًا من شريف مكة الذي وثق بإيداع زمام الإدارة في "أيدي شتى الأشخاص غير الموثوقين". وكان سوء الحال وشر المآل؛ مما دفع السكان المحليين إلى الرضا "بالوقوع تحت هيمنة الغرباء حتى ولو كانوا البريطانيين". وأعلم القنصل السفارة بأن قد نفخوا ما استطاعوا هذا السخط ناشرين مجانًا بين السكان المحليين كراريس باللغة العربية مطبوعة في سنغافورة "تصور السلطات العربية المحلية والعثمانية في أبشع وأقذر شكل ممكن ومستطاع".

وأثَّر البريطانيون كذلك على السكان المحليين بوساطة الجالية المتنفذة من المسلمين رعايا بريطانيا الذين "أخذوا في أيديهم جزءًا كبيرًا من تجارة الحجاز"(٤٨).

وحلل فون تسيمرمان وضع المسلمين المحليين من رعايا بريطانيا وتأثيرهم السياسي. وما أشير إليه ضمنًا في أنهم سعوا ما أمكن إلى إبراز - بشكل واضح وجلي - المزايا والأفضليات التي يتمتعون بها في عيون السكان الأصليين. وهذه الجالية استغلت ذريعة لمضايقة الحكومة العثمانية وإرغامها في أي وقت من الأوقات عندما يراد ذلك.

ومن البديهي أن جالية المسلمين من الرعايا البريطانيين استغلت على أيدي البريطانيين بصفتها عامل ضغط على السلطات العثمانية بهدف ضمان اتخاذها القرارات المتلائمة مع المصالح البريطانية بصدد القضايا المهمة لهم، بيد أنه من المستبعد في رأي فون تسيمرمان تأميل لندن في التوصل عن طريق مساعدة هذه الأداة إلى الترسيخ التدريجي للسيطرة البريطانية هنا.

---

(٤٨) المصدر السابق، الورقة ٧ ظهرها.

وكان أهم عامل حث بريطانيا على القيام بمحاولات السيطرة على الحجاز وجود أقدس المقدسات الإسلامية في العالم هنا؛ "ومن ثم التأميل في مزاولة الضغط المعنوي من هنا على المسلمين"^(٤٩)، وتتسجم بشكل حسن في الرسم التخطيطي لدى فون تسيمرمان المحاولة المنسوبة على سبيل الخطأ إلى شيخ الكويت (الذي خلط القنصل في اسمه بين ابن سعود وابن صباح) للسيطرة على الحجاز ونجد. وفي حالة نجاح محاولة كهذه سيتاح للبريطانيين تحقيق حلمهم المنشود حول توحيد البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي بخط للسكة الحديدية بين مدينتي السويس والكويت وكلتا المدينتين خاضعتان لسلطة البريطانيين.

وقد كانت المجابهة بين بريطانيا والدولة العثمانية في منطقة الخليج العربي موضع الاهتمام الشديد سواء من قبل الدبلوماسيين الروس أو العسكريين؛ إذ إن أولئك وهؤلاء أنجزوا عملاً نشيطًا بصدد هذه المنطقة، وفي يوم ٦ نيسان (أبريل) سنة ١٩٠١م (١٧ ذي الحجة ١٣١٨هـ) أفاد القنصل العام الروسي الإمبراطوري في بغداد ضمن برقيته السرية التي وجهها وزير الخارجية نظرًا لأهميتها إلى الدوق كوراباتكين بوصول مشير الفيلق العثماني السادس إلى البصرة لغرض احتلال الكويت^(٥٠). وبشأن هذا النبأ استوضحت هيئة الأركان العامة أن شيخ الكويت مبارك الذي له عداوة مع حاكم نجد ابن رشيد، وبعد العديد من النجاحات ومن ضمنها محاولة احتلال حائل عاصمة نجد مني بهزيمة نكراء. وكانت الحكومة العثمانية تنوي استغلال ما أصيب به مبارك من وهن وضعف؛ لكي تمتلك الكويت التي تتمتع بالأهمية "بصفتها منفذًا إلى البحر لطريق خط سكك حديد بغداد الذي هو قيد التصميم والتخطيط"^(٥١). وبهذا الشكل

---

(٤٩) المصدر السابق، الورقة ٥ وجهًا وظهرًا.

(٥٠) أرشيف الدولة الروسي التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ٣.

(٥١) أرشيف الدولة الروسي التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ٤.

اكتسب الصراع على الكويت - حتى في ذلك الوقت - طابعًا جديًا للغاية.

والأمر أشبه ما يكون بأن الإمبراطورية الروسية قد انجذبت إلى هذا الصراع وتورطت فيه، وقد شهدت على ذلك رحلة البواخر الروسية إلى الخليج العربي والازدياد الحاد؛ لاهتمام الدبلوماسيين والعسكريين بهذه المنطقة. وكما أفيد بتاريخ ١١ نيسان (أبريل) من سنة ١٩٠١م (٢٢ ذي الحجة ١٣١٨هـ) في تقرير ضابط هيئة الأركان العامة استنادًا إلى بعض المعلومات؛ فإن الشيخ مبارك "كان قد أعد خلال الآونة الأخيرة خطة للتنازل إلى الحكومة الروسية عن شريط ساحلي عند مدينة الكويت لإنشاء محطة فحم في الخور الخليجي الكويتي"(٥٢). وتنبغي الإشارة إلى أن تشييد المحطة الفحمية في ذلك الحين كان ينظر إليه بصفتها خطوة جدية نحو إقامة التأثير والنفوذ أو حتى باتجاه الاستعمار. بيد أن روسيا لم يتسن لها إحراز الفوز على البريطانيين، وليس هناك ما يثبت خطة للتنازل للحكومة الروسية عن شريط ساحلي بالكويت.

وفي يوم ١٨ كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٠٥م (١٣ ذي القعدة ١٣٢٢هـ) بعث المندوب العسكري الروسي في إسطنبول تقريرًا إلى القسم السابع لهيئة الأركان العامة عن تحركات ابن سعود الواقف "في مقدمة الشيوخ العرب الذائدين عن استقلالهم من تطاولات العثمانيين الساعين إلى الهيمنة في القسم المركزي الأوسط من الجزيرة العربية"(٥٣)، والذي تهيأ له ترسيخ مواطئ أقدامه في شمال نجد وفي منطقة القصيم. وأبلغ الوكيل العسكري في إسطنبول المقدم إليكسييف بأنه حسب اعتقاد العثمانيين وتوقعاتهم يسعى إلى الاستحواذ على المدينة المنورة المقدسة، ولأجل هذا كما يدعي دخل

---

(٥٢) أرشيف الدولة الروسي التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ٣.

(٥٣) أرشيف الدولة الروسي التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ٧.

في صلات سرية خفية مع قادة الانتفاضة التي اندلعت مؤخرًا في هذه المدينة. أما خصمه الرئيس فهو حاكم جبل شمر عبدالعزيز بن رشيد والقوات العثمانية التي أرسلت إلى هذا الإقليم لتطويع ابن سعود أوائل عام ١٩٠٤م (أوائل ١٣٢٢هـ)، ولم تنقذ من الهلاك إلا بفضل ابن رشيد؛ مما حمل العثمانيين على اتخاذ موقف جديد بإرسالها إلى القصيم عشرين ألف عسكري على رأسهم مشير الفيلق السادس أحمد فيضي باشا. وقد وضعت تحت تصرف هذا المشير من مستودعات إسطنبول بنادق موزر وبضعة مدافع؛ نظرًا لكون أهالي الجزيرة العربية المتمردين امتلكوا أسلحة من أحدث المنظومات. وعدا هذا تقرر تركيز فيالق عدة في المدينة هي التي ضمت بعدئذ إلى قوات فيضي باشا.

وكتب الوكيل العسكري عن الجمود التام للقوات العثمانية، وانتشار الهرب منها بالجملة وبشكل شامل؛ الأمر الذي أوضح إحباط القوات التام والنوعيات الواطئة للكيان القيادي نفسه. شعرت القوات بنقص في الجياد، ولم يكن لدى الولاية ما يكفي من الوسائل والسبل والأموال لإمداد القوات المرسلة وتزويدها بكل ما يلزمها، وما هو ضروري لها. أما تصرفات ابن سعود وأعماله فقد كانت ناجحة إلى حد أنه حتى جرى التوقف في إرسال القوات. وعاد السلطان إلى قراره السابق بناءً على الطلب الملح من شريف مكة الذي عدَّ ابن سعود وكذلك شيخ الكويت مبارك الصباح العدوين للدولة العثمانية(٥٤).

وبصورة متوازية مع قوات المشير اتخذ قرار بتحريك ٤ – ٥ (طوابير) إلى المدينة المنورة. يورد الوكيل العسكري الروسي على الدوام المعطيات عن تنامي حركة ابن سعود.

---

(٥٤) المصدر السابق، الورقة ٨ ظهرها.

ويورد إليكسييف حقائق عدة تشهد على اهتمام بريطانيا بالانتفاضة المضادة للدولة العثمانية في الجزيرة العربية. وهو الأمر الذي من المستبعد أن يكون ممكنًا التشكيك فيه، ومن هذا إرسال بريطانيا إلى الخليج العربي - بالإضافة إلى الباخرتين العسكريتين المرابطتين هناك بصورة دائمة - باخرتين عسكريتين أخريين. وكما أبلغ الوكيل والي البصرة فإن وصول كابتن بريطاني إلى الكويت بصحبة ثلاثة موظفين كانت غايته توسيع ممتلكات شيخ الكويت(٥٥). وتوجه موظفون نظاميون بريطانيون إلى البصرة ثم إلى بغداد حيث صرحوا برغبتهم في القيام بزيارة إلى نجد ولكن طلبهم هذا جوبه بالرفض.

ولقد عقد وضع العثمانيين في القسم الأوسط من الجزيرة العربية تناشط التمرد في اليمن، والذي وصف مفصلاً في تقارير الوكيل العسكري، وتعين على بريطانيا إرسال قوات أيضًا إلى اليمن؛ حيث لاقت مصاعب لا تقل عنها في نجد. وبسبب المصاعب مع إرسال الحمولات ونقص الجياد استطاع العثمانيون أن يرسلوا إلى نجد سريتين فحسب بدلاً من فوجين من الخيالة (سلاح الفرسان).

وفي التقرير بتاريخ ٢ شباط (فبراير) سنة ١٩٠٥م (٢٨ ذي القعدة ١٣٢٢هـ) أبلغ الوكيل العسكري بالإحالة على والي ولاية البصرة الذي كان المصدر الثابت للمعلومات إلى العسكريين الروس بأنه من تعداد القوات المرسلة إلى القصيم قد هرب من الخدمة العسكرية ما يقابل كتيبتين في ظرف ١٥ يومًا من حملة الزحف لم تبلغ فصيلة المشير فيضي باشا إلا إلى منطقة آبار الدهيسه على مبعدة ٦ مسيرات إلى الجنوب من نجد، وهو الأمر الذي يشهد في رأي الوكيل سواء على خيبة الثقة في العرب الذين كانت تتشكل منهم قوات الفيلق السادس،

---

(٥٥) المصدر السابق، الورقة ١١ ظهرها.

أو تخلخل مواقع العثمانيين في الجزيرة العربية(٥٦)، وانتقلت كتيبة واحدة إلى صف ابن سعود، وتوجهت كتيبة أخرى إلى الكويت عارضة تقديم خدماتها إلى البريطانيين.

وبعث والي البصرة كذلك برقية عن نتائج لقائه مع ابن سعود، وقد أكد ابن سعود إخلاصه للسلطان، وطلب إلغاء البعثة العسكرية التي أرسلت ضده، وفي حالة الموافقة على طلبه عرض تزويده فصيلة القوات العثمانية بكل ما يلزمها للعودة إلى البصرة(٥٧). ولدى ذلك رجا ابن سعود الانتباه إلى دسائس ابن رشيد شيخ جبل شمر ومكايده. واعتذر ابن سعود عن قبول الدعوة الموجهة باسم السلطان للقيام بزيارة إلى إسطنبول بغية الحصول على الإيضاحات، وأرسل من ينوب عنه في ذلك. وحسب رأي السفير الإمبراطوري في إسطنبول؛ فإن السلطان كان يريد المصالحة مع ابن سعود، ولكن يخشى من أن يكون في ذلك إساءة إلى نصيره المخلص ابن رشيد.

وخلال النصف الثاني من شهر شباط (فبراير) سنة ١٩٠٥م (منتصف ذي الحجة ١٩٢٢هـ) توجه ابن سعود مجددًا إلى السلطان معربًا عن رغبته في التفاهم مع السلطات العثمانية بشأن قواتها في إقليم القصيم التابع له(٥٨). وأمر السلطان والي البصرة أن يعلن لابن سعود رأفته، وأن فصيلة فيضي باشا مرسلة إلى القصيم؛ لتثبيت السلطة العثمانية هناك شأن الفصيلة الأخرى المرسلة إلى المدينة المنورة. وفي الوقت نفسه - كما كتب الوكيل - فإن تصرفات ابن سعود ضد ابن رشيد "جعلت السلطان يشك في صدق تأكيدات ابن سعود". ولهذا السبب بقيت غايات البعثة العسكرية هي السابقة

---

(٥٦) أرشيف الدولة العسكري التاريخي السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ١٣ ظهرها.

(٥٧) التقرير بتاريخ ١٢ شباط (فبراير) سنة ١٩٠٥م (٨ ذي الحجة سنة ١٣٢٢هـ)، أرشيف الدولة الروسي العسكري - التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ١٧ ظهرها.

(٥٨) التقرير بتاريخ ٢٠ آذار (مارس) سنة ١٩٠٥م (١٤ المحرم ١٣٢٣هـ)، أرشيف الدولة الروسي العسكري - التاريخي السجل ٤٤، الملف ٢٣، الورقة ٢٣.

نفسها. وفي يوم ٢٧ شباط (فبراير) سنة ١٩٠٥م (٢٣ ذي الحجة سنة ١٣٢٢هـ) تلقت الطوابير الأول والثاني والرابع من فوج المشاة الأربعين المرابطة في المدينة المنورة أمرا بالتحرك نحو القصيم - الواقعة بين حائل والكويت - حيث كانت نية الباب العالي متجهة إلى تشكيل ولاية جديدة تحت إدارة فيضي باشا(٥٩).

وأفاد الوكيل ضمن تقريره المؤرخ في ٢٠ أيار (مايو) (١٦ ربيع الأول ١٣٢٣هـ) بأن المشير فيضي باشا التقى لدى وصوله إلى عنيزة الإمام عبدالرحمن الذي أبدى استعداده للولاء للسلطان، وعقب هذا أخذ المشير منه يمين الإخلاص؛ وسلمه إدارة القصيم مع الأقاليم المتاخمة الموحدة تحت إدارة "الرياض" العامة(٦٠). وطبقًا لرأي الوكيل العسكري فإن المشير كان مضطرًا إلى الاقتصار على هذا التدبير والاكتفاء به. وكان الوضع بالنسبة للعثمانيين ليس مستتبًا أو مستقرًا بتاتًا. ولم يكن الوضع أقل منه اختلالاً في الحجاز حيث انتشار النقمة. وأفاد الوكيل بأن القوات العثمانية في الحجاز تشعر بالاحتياج إلى كل شيء. و"أقسام الفيلق الرابع التي أظهرت ضعفها في اليمن عوقبت بتعيينها لحراسة سكة حديد الحجاز"(٦١).

وفهم من تقرير الوكيل العسكري بتاريخ ١٠ أيار (مايو) (٦ ربيع الأول ١٣٢٣هـ) لفيضي باشا احتلال بريدة وعنيزة وبعد هذا إلى المدينة المنورة ومن هناك توجه عن طريق جدة إلى اليمن(٦٢).

وأفيد ضمن التقرير المقدم إلى هيئة الأركان العامة على أساس تقارير الوكيل العسكري إلى إسطنبول وهيئة أركان المنطقة العسكرية القوقازية بتاريخ ٢٧ أيار (مايو) (٢٣ ربيع الأول ١٣٢٣هـ) وبتوقيع

---

(٥٩) أرشيف الدولة الروسي العسكري - التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ٢٦.

(٦٠) أرشيف الدولة الروسي العسكري - التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ٤١.

(٦١) التقرير بتاريخ ١٦ حزيران (يونيو) سنة ١٩٠٥م (١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٢٣هـ).

(٦٢) الوثيقة المقتبس عنها. الورقة ٧٥.

الجنرال ميجر يرمولوف عن تعيين فيضي باشا رئيسًا للبعثة العسكرية اليمنية ووصوله إلى المدينة المنورة(٦٣). ويبدأ العسكريون الروس بإلحاح متزايد تدريجيًا مع أن ذلك مصحوب بالاحتراس يطرحون الفكرة حول دور البريطانيين في الانتفاضة المضادة للدولة العثمانية في الجزيرة العربية، وبالدرجة الأولى في اليمن. وجاء في إحدى وثائق هيئة الأركان العامة ولو بالاستناد إلى الصحافة عن التلميحات إلى أن "الانتفاضة في اليمن التي اتخذت مثل هذه الأبعاد الجدية هي من فعل أيدي البريطانيين"، وأن الغرض من هذا التحريض هو تأمين ممتلكاتها الساحلية في الجزيرة العربية بالمجاورة الأكثر نفعًا لها من العشائر العربية المستقلة ولكن الضعيفة"(٦٤)، وأكد في الوثيقة المرسلة من قبل هيئة أركان الدائرة العسكرية القوقازية إلى المقر العام الثاني لهيئة الأركان العامة بتاريخ ٢٨ تموز (يوليو) من تلك السنة نفسها (٢٦ جمادى الأولى ١٣٢٣هـ) أن حركة الإمام حميد الدين في اليمن "يدعمها البريطانيون من عدن"(٦٥)، وعقب الاستيلاء على صنعاء وجه حميد الدين إلى شريف مكة الإنذار يطالبه بالانضمام إليه، "وبعكسه يهدده بالموت، ونهب مكة"(٦٦)، ويفهم من الشائعات الرائجة في الأوساط العسكرية في الباب العالي أن الشريف طلب المساعدة من مصدر؛ أي: عمليا من البريطانيين.

وحتى نهاية صيف سنة ١٩٠٥م (شعبان ١٣٢٣هـ) تغير الوضع في اليمن. وقد أدت أفعال العثمانيين الناجحة خلال فترة آب (أغسطس) – أيلول (سبتمبر) وفقًا لتقدير الوكيل العسكري إن لم "يكن إلى تهدئة

---

(٦٣) أرشيف الدولة الروسي العسكري – التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ٧٩.

(٦٤) الوثيقة المقتبس عنها. الورقة ٧٥ وجهًا وظهرًا.

(٦٥) الوثيقة المقتبس عنها الورقة ٢٠.

(٦٦) المصدر نفسه.

البلاد فعلى أقل تقدير إيقاف أعمال العرب المتمردين"(٦٧). وأعيد قسم من القوات السورية وإن كان ذلك في الحقيقة بسبب "الغياب التام للبسالة الحربية". غير أن الباب العالي كان ما يزال مهتمًا سواء بالحالة في اليمن أو ضغط عبدالعزيز بن سعود على آل رشيد. وعلى الرغم من النجاحات التى أحرزتها القوات العثمانية في الصراع ضد الثوار اليمنيين؛ فإن الحكومة العثمانية كما أفاد المقدم إليكسييف بتاريخ ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ١٩٠٥م (١٧ رمضان سنة ١٣٢٣هـ)(٦٨) لم تعد انتفاضة الجزيرة العربية منتهية، وهو ما يشهد عليه ضمنا الأمر بإرسال "٢٠٠٠ فرد من عداد الفيلق الخامس؛ لتكميل تعداد الوحدات المرابطة في نجد التي بلغ عددها بنتيجة الخسائر والأمراض وحوادث الهرب من الجيش إلى حد الربع من مجموع تركيبها الابتدائي"، ولذلك لم يكن لدى العثمانيين أموال كافية لإرسال الجنود، وهؤلاء أنفسهم رفضوا الذهاب إلى هناك؛ "لعلمهم بالنصيب الذي أصاب القوات الموجودة هناك". وأبلغ القنصل العام الروسي في بغداد عن اعتقال ميجر وأربعة من صغار الضباط لفرارهم من الخدمة العسكرية في القصيم. وطبقًا لكلامهم فإن العديد من الضباط قد هربوا إلى الكويت وجهات أخرى من سواحل الخليج، وبقي في الفيلق ما بين ٨٠ - ١٠٠ فرد(٦٩).

وكان سبب حوادث الفرار بالجملة الظروف التي لا تطاق لحياة العسكريين العثمانيين الذين وبضمنهم الضباط "منذ يوم الاشتراك في الزحف لم يتلقوا مخصصاتهم، وظلوا دون الملابس الداخلية الجديدة والبزات والملابس ولم يتناولوا اللحوم شهورًا"(٧٠). ورأى

---

(٦٧) أرشيف الدولة الروسي العسكري - التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ١٠٥.

(٦٨) أرشيف الدولة الروسي العسكري - التاريخي. السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ١٠٥ ظهرها.

(٦٩) المصدر السابق، الورقة ١٠٦.

(٧٠) المصدر نفسه.

ضابط في الاستخبارات العسكرية الروسية بأم عينه رسالة بعثها ضابط عثماني إلى والده، وفيها يخبره بأن الجيش من المستبعد أن يتحمل الشتاء القادم.

وفي تقرير بتاريخ ١٢ كانون الأول (ديسمبر) من سنة ١٩٠٥م (١٥ شوال سنة ١٣٢٣هـ) أرسله إليكسييف الذي أصبح الآن مقدمًا في هيئة الأركان العامة أفاد مجددًا بأنه قد شكلت في الجزيرة العربية إما ولاية أو متصرفية جديدة في منطقة القصيم. وبعدئذ في يوم ١٧ آذار (مارس) سنة ١٩٠٦م (٢٢ المحرم سنة ١٣٢٤هـ) أعلم إليكسييف بأن فصيلة عثمانية صغيرة في عرف الماضي القريب قد ازداد تعدادها من جديد، وبلغ إلى ١٠ كتائب. ولدى ذلك عرفت هيئة الأركان العامة الروسية بالضبط من أين بالذات أرسلت القوات لتعزيز هذه الحامية، وهكذا أخذت من كيان الفيلق السادس للجيش العثماني الكتيبتان الأولى والرابعة لفوج المشاة الحادي والأربعين والكتيبة الثانية من الفوج الثاني والأربعين والكتائب الأولى، والرابعة والأربعين، والخامسة والأربعين من فيلق الرماة وبطارية مدفعية واحدة (٦ مدافع) وكتيبة جبلية (٤ مدافع ميدان) و ١٠٠ خيال، والقسم الثالث من الفيلق الخامس - ٣ كتائب (فوج المشاة الأول والثاني والرابع وكذلك الأربعين) علمًا بأن نفقات هذه القوات وزعت في حصص على هذه الفيالق؛ "ولكن ٣ كتائب من الفيلق الخامس يصرف عليها فعليًا الشيخ ابن رشيد على حساب ٥٠ قرية من إقليم القصيم"(٧١).

وعثر في وثائق هيئة الأركان العامة أيضًا على بعض التناقضات. وفي الاستعلامات عن القوات العثمانية في القسم الآسيوي منها أفادت هيئة الأركان العامة بأن القوات من الفيلق السادس كانت ٦ كتائب مرابطة في سنجق الأحساء على ساحل الخليج العربي،

---

(٧١) أرشيف الدولة الروسي العسكري - التاريخي - السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ١١٨.

وفضلاً عن ذلك قسم من هذا الفيلق ١٩ كتيبة فحسب دخلت في كيان الفصيلة الموفدة المرسلة إلى أواسط الجزيرة العربية (إقليم القصيم) في بداية عام ١٩٠٥م (أوائل سنة ١٣٢٣هـ)(٧٢).

ومن الطبيعي أن هيئة الأركان العامة الروسية تابعت باهتمام مراقبة تنقلات القوات العثمانية، كما راقبت القوات البريطانية في الجزيرة العربية. وفي يوم ٢٠ كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٠٦م (٢٥ ذي القعدة سنة ١٣٢٣هـ) أفيد ضمن تقرير سري بالشفرة من بيروت عن إنزال بريطاني في العقبة؛ وبسبب ذلك نجم نزاع بين الدولة العثمانية من جهة وبريطانيا من جهة أخرى(٧٣). وقد أعلنت الدولة العثمانية أنها تعير اهتمامًا كبيرًا إلى العقبة؛ وذلك لأنها تخطط لإنشاء طريق للسكة الحديدية من مكة إلى العقبة.

أما روسيا فإنها بالطبع اهتمت بالمعلومات عن التنقلات أكثر من أهمية الوضع في الجزيرة العربية بالنسبة إليها، بل بسبب وقوع التصادم الحربي المحتمل ضد الدولة العثمانية. واستنبط الاستنتاج بأن قوات الفيلقين الخامس والسادس، وهي التي في حالة قيام الحرب ضد روسيا "سوف تتحرك بلا شك نحو منطقة ما وراء القوقاز" يظهر أنها ضعيفة جدًا من حيث تركيب القوام(٧٤).

وجاء في استعلام هيئة الأركان العامة بتاريخ ١٤ كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٠٦م (١٩ ذي القعدة ١٣٢٣هـ) الموضوعة على أساس تقرير الوكيل العسكري الروسي في إسطنبول أن صراع الدولة العثمانية ضد الانتفاضة في اليمن التي بدا وكأنها قد قضي عليها وانتهت في ١٩ آب (أغسطس) سنة ١٩٠٦م (٢٩ جمادى الثانية سنة ١٣٢٤هـ) بالاستيلاء على المدينة الرئيسة، إلا أن أحمد فيضي

---

(٧٢) أرشيف الدولة الروسي العسكري – التاريخي – السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ١٣٣.

(٧٣) أرشيف الدولة الروسي العسكري – التاريخي – السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ١٠٩.

(٧٤) أرشيف الدولة الروسي العسكري – التاريخي – السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ١٣٥.

باشا في واقع الأمر ما يزال بعيدًا عن كونه قد اعتاد على هذه النتيجة الطيبة بالنسبة إلى العثمانيين"(٧٥). وكان المشير العثماني "المحاط من جميع الجهات بالأجانب وخوفًا على مواصلاته عن طريق البحر مضطرًا إلى الذود عن صنعاء".

وأفادت هيئة الأركان العامة بأن العثمانيين يتعين عليهم إرسال تعزيزات إلى اليمن غير أن الكتيبة التاسعة عشرة المرسلة في عام ١٩٠٥م (١٣٢٣هـ) إلى القصيم "باقية هناك حاليًا كذلك"(٧٦).

وكان هذا شاهدًا على أن غياب الباب العالي في أواسط الجزيرة العربية منته ومفروغٌ منه، ولا يعد بالمرة قضية وقد تمت تسويته.

ومع كل الأنشطة العسكرية للدبلوماسيين الروس بصدد إعلام الحكومة عن ملابسات الصراع كافة بين الدول العالمية على النفوذ في منطقة شبه الجزيرة العربية، وكذلك عن حالة في ولايات الدولة العثمانية؛ فإن المهام الروسية حافظت على أهميتها الأولوية. وقد زاولت القنصلية في جدة بانتظام قضايا الحج مع إنجازها العمل التطبيقي والإعلامي اليومي. وضمنا بعثت سنويًا إلى سانت بطرسبورغ التقارير عن موسم الحج المنصرم. على سبيل المثال بعد موسم الحج لسنة ١٩٠٧م (ذي الحجة ١٣٢٤هـ) أرسل القنصل فون تسيمرمان إلى القسم الأول لوزارة الخارجية الروسية بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) (١٩ شوال ١٣٢٥هـ) تقريرًا مفصلاً أفاد فيه ضمنًا بأن المجموع العام للحجاج القادمين عن طريق البحر إلى جدة وينبع بلغ ١٠٨٣٠٨ أشخاص. ولدى ذلك نبه القنصل إلى أن سكان منطقة آسيا الوسطى الروسية وبخارى يخلطون مع سكان تركستان الصينية، ويدرجون في الفقرات نفسها من القائمة(٧٧). وهم يشغلون

---

(٧٥) أرشيف الدولة الروسي العسكري – التاريخي – السجل ٤٤٤، الملف ٢٣، الورقة ١٣٤.

(٧٦) المصدر السابق، الورقة ١٣٥ ظهرها.

(٧٧) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. الرصيد التركي. رقم التصنيف ٥٠٢ – ب الملف ٣٣٧١، الورقة ١ ظهرها.

من حيث العدد ١٥٣٣٣ شخصًا المرتبة الثالثة بعد الهنود الذين يبلغ عددهم ٢٤٠٨٤ شخصًا وكذلك بعد المصريين الذين يبلغ عددهم ١٧٨٤٧ شخصًا. وعلى إثر الروس والبخاريين وسكان تركستان الصينية "يأتي الجاويون ١٣١٧١ شخصًا وعرب سوريا وفلسطين وطرابلس واليمن وحضرموت والخليج العربي ١٠٧٦٧ والأفارقة ٦٩٩٠ والعثمانيون واللبنانيون ٤٧٤٨ والمغاربة ٣٣١٧ والأفغان والبلوش ٢٩٩٧ والجزائريون ٢٤٠٤ والفرس ٢٤١٩ والصينيون ٤٩ والبوسنيون والهرسكيون ٢٤"(٧٨). أما الحجاج القادمون من الشمال عبر بور سعيد والسويس فقد بلغ مجموعهم ١١٣٦٦ شخصًا.

وحلل القنصل طريق سفر الحجاج من الإمبراطورية الروسية، واقترح إلزام جميع الذاهبين إلى الحج بقطع تذاكر السفر ذهابًا وإيابًا على البواخر الروسية، كما كان يجري في الدول الأخرى. واقترح فون تسيمرمان تشديد الرقابة على الحدود الروسية – الأفغانية، والبخارية – الأفغانية.

وأفيد أيضًا عن الأمانات التي تركها الحجاج في القنصلية الروسية خلال موسم الحج لسنة ١٩٠٧م (ذي الحجة ١٣٢٤هـ) بقيمة ٤٩٨٥٩ روبلا من روبلات القرض وبضمنها ٣٩٠٠١ نقوداً ١٠٨٥٨ روبلا في هيئة ممتلكات مؤمنة. ولأجل المقارنة ذكر أنه خلال موسم الحج السابق لعامي ١٩٠٥ – ١٩٠٦م (١٣٢٢–١٣٢٣هـ) وضع لدى القنصلية من الأمانات بقيمة ٣٠٢٨٠ روبلا(٧٩). وعدّ النمو الدائم لمقدار الأمانات والودائع إنجازاً من قبل العاملين في القنصلية.

وكان إيداع الأمانات في القنصلية تيسيرًا على العاملين فيها في إنجاز المهمة في حالة حدوث وفاة الحاج عند جمع إرثه، وهو ما واصل في غضون جميع الأعوام التسعة التي أمضاها فون تسيمرمان

---

(٧٨) المصدر السابق، الورقة ٣ ظهرها.

(٧٩) المصدر السابق، الورقة ٢١ وجها وظهرًا.

في منصب القنصل هنا إرساله إلى الوطن. وإنجاز هذه المهمة قد عقده الاستغلال الذي كان الحجاج عرضة له من طرف المطوفين (وهم الأدلاء في الحج) ووكلائهم الذين ينوبون عنهم، وكذلك أصحاب البيوت الذين كان يسمح لهم بأخذ الحجاج، وكانوا يدفعون مقابل ذلك إلى الشريف سواء عن طريق دفع مكافأة سنوية أو بمثابة رشوة ودفعة واحدة(٨٠). وأبلغ القنصل أنه في عام ١٩٠٥م (١٣٢٣هـ) حين طالب الشريف عون الرفيق مثلاً أحد الوكلاء بدفع مبلغ ٣٠ ألف ليرة تركية أودعه في السجن؛ لكي يرغمه على دفعها.

وقد واصل عمل الدبلوماسيين الروس في جدة إلى حد الحرب العالمية الأولى التي عينت وزارة الخارجية عشيتها قنصلاً آخر في نجد غير أنه لم تتح له الفرصة للبدء في عمله.

وقد أدت الحرب العالمية الأولى والأحداث الدرامية التي أعقبتها والتي جرت في روسيا وهي ثورة أكتوبر البلشفية لسنة ١٩١٧م (ذي الحجة ١٣٣٥هـ)، والحرب الأهلية الدموية إلى انهيار الإمبراطورية الروسية. وانهارت أيضًا إمبراطورية أخرى سادت في منطقة الشرق الأوسط، وهي الإمبراطورية العثمانية.

ولكن خبرة تعاون روسيا مع بلدان شبه الجزيرة العربية والخليج العربي التي بدأت أواخر القرن التاسع عشر - أوائل القرن العشرين لم تذهب في طي النسيان بل تجسدت في أعمال الأجيال الجديدة من الساسة والدبلوماسيين.

---

(٨٠) المصدر السابق، الورقة ٢٦.